

نساء من قبيلة الحنانشة وبني جلاب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

يعقوب خديجة

دكتورالي / جامعة قسنطينة 2

الملخص.

برزت بعض النساء على الساحة السياسية للقبيلة، وخاصة لدى قبيلة الحنانشة وبني جلاب ببابلك الشرق الجزائري خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بفضل العديد من الظروف التي عرفتها مشيختا القبيلتين اللتان كانتا تتعرضان لمحاولات من طرف بايات تونس وقسنطينة بالنسبة للمشيخة الأولى، والصراع على السلطة والعرش الجلابي بالنسبة للمشيخة الثانية، وهو ما أدى إلى بروز عدة نساء على الواجهة، وممن علجية بنت بوعزيز شيخ الحنانشة خلال القرن الثامن عشر، ولالة عيشوش لدى سلاطين بني جلاب حكام تقرت خلال القرن التاسع عشر. وتكشف شخصية علجية ولالة عيشوش ومشاركتهن في العديد من الأحداث المحلية ببابلك الشرق الجزائري، عن مسألة علاقة شيوخ القبائل بأفراد قبائلهم من جهة، وبالحكام العثمانيين ومن بعدهم الفرنسيين من جهة أخرى، غير أن ما يلاحظ هو صعوبة تركيب مسار لنساء القبيلة نظرا لقلّة المعلومات الواردة في المصادر التاريخية، وإهمال لدور المرأة خصوصا والقبيلة عموما.

Abstract:

Some women emerged in the political arena of the tribe, especially among the Hanansha tribe and Beni -Djellab during the 18th and 19th centuries, by virtue of many of the conditions that were known to the two women who were exposed to Armies the Beys of Tunisia and Constantine for the first mechiakha, and the struggle for power for Les Ben -Djellab for the second mechiakha, Which led to the emergence of several women on the façade, including the Aldjia childre of Bouaziz Cheikh Hanench during the eighteenth century, and Aichouch in the Sultans of Ben -Djellab rulers were pinned during the nineteenth century. The personality of Aldjia and Lala Aichouch and their participation in many local events in Beylik, the east of Algeria, reveal the relationship between Sheikhs of tribals and members of their tribes on the one hand, and the Ottoman rulers and the French authorities. Is the difficulty of establishing a path for tribal women, because of the lack of information contained in historical sources, and neglect of the role of women in particular and the tribe in general.

الكلمات المفتاحية: نساء / قبيلة الحنانشة / بني جلاب / علجية / لالة عيشوش.

مقدمة.

إن موضوع النساء في دواخل أرياف بايلك قسنطينة خلال العهد العثماني، من المواضيع التي أهملها الباحثون المهتمون بتاريخ المنطقة في هذه الفترة وضربوا عنها صفحا، وربما يعود إحجام الدارسين في هذا الموضوع إلى قلة المادة الخيرية وشحها، وتفرقتها في مصادر شتى، والقليل منها ذكر عرضا عند مرور رحالة أجنبي بقبيلة معينة، أو في إطار رصد بايات تونس لإحسانات وهدايا إلى نساء بعض شيوخ القبائل وحرمن، أو عمل المترجمين العسكريين لإعداد بحوث تاريخية حول قبائل البايك وخاصة المترجم العسكري الفرنسي شارل فيرو.

وبالعودة إلى مهام المرأة العادية داخل القبيلة، فقد لعبت دورا كبيرا في إدارة الحياة العامة بها من خلال سهرها على شؤون بيتها ورعاية زوجها وأبنائه، وقد تمارس التجارة في بعض الأحيان وتنتقل مع أفراد القبيلة إلى الحج، وسنسى جاهدين للكشف عن وضعية بعض النساء اللواتي تقلدن السلطة داخل القبيلة ولعبن أدوارا سياسية كبيرة، وكانت لهن دراية بالسياسة وفن الحرب في القبيلة، أو في مدن دواخل البايك.

تم الاعتماد في هذا المقال على ما جاء في المصادر التاريخية والوثائق الأرشيفية في تونس والجزائر، والدراسات السابقة، قصد تتبع ظهور الوجوه النسائية في الدواخل، وعلاقتهم بقبائلهم، ومدى قربهم من السلطة، معتمدين على المنهج التحليلي الوصفي في سرد لمسار هاته الشخصيات النسوية القبلية، فما هي أبرز النساء لدى قبيلة الحنانشة وفي مدينة تقرت؟ وما هي أسباب ظهورهن على الساحة؟ وما هي مجالات إدارتها؟ وكيف ذكرت في المصادر التاريخية؟

سنحاول الإجابة على هذه الأسئلة في عدة نقاط تتمثل فيما يلي:

- علجية بنت بوعزيز شيخ الحنانشة: امرأة محاربة خلال القرن الثامن عشر

- إحسانات بايات تونس لنساء الحنانشة

- لآلا عيشوش: امرأة حاكمة في تقرت خلال القرن التاسع عشر

1. نساء قبيلة الحنانشة.

تعود أصول قبيلة الحنانشة إلى قبيلة هواره البربرية (1)، ويمتد مجال الحنانشة في أطراف الايالتين التونسية والجزائرية، فهو تقريبا على بعد أربعة فراسخ من وادي صراط، يمتد شمالا إلى وادي الخميس وجنوبا إلى وادي مسكيانة (2). وكان وطن هواره عبارة عن مجال شاسع في العهد الحفصي، إذ يتمدد في فترات ضعف السلطة الحفصية ليشمل المناطل التلية ويصل حتى مشارف الوطن القبلي، ويتقلص إلى ما وراء نهر سراط وقلعة سنان عندما تكون السلطة في أوج قوتها (3)، وبالتالي تظهر أن مجال القبيلة تهيمن على فضاء جغرافي وبشري هام.

1-1. علجية ابنة بوعزيز بن نصر شيخ الحنانشة.

أ. نسيها.

هي علجية بنت بوعزيز شيخ الحنانشة الذي حكم فرع نصر خلال فيما بين (1704 - 1739م) (4)، وينحدر نسيم إلى الخليفة الثالث عمر ابن الخطاب رضي الله عنه (5)، وقد لقيها الشعر المحلي بـ "الأميرة" و"سيده الرجالة" (6).

لعبت دورا بارزا في حياة أبيها وخصوصا أثناء إحدى المراحل التي عرف فيها البايات أوج قوتهم، واتحادهم من أجل الإطاحة بقيبيتها وبأبيها المتزعم للحنانشة آنذاك (7)، ومن المرجح أن أباه بوعزيز وأمتها قد أحاطاها بعناية خاصة داخل القبيلة المتعاضمة النفوذ في العقود الأربعة الأولى من القرن الثامن عشر ميلادي.

وبالعودة إلى والدتها التي نجهل إسمها، فقد سكتت المصادر التاريخية عن ذكرها رغم شهرة زوجها، باستثناء المؤرخ التونسي حمودة بن عبد العزيز الذي أخبرنا بأنها قامت بدور المبعوث سنة 1736م بين زوجها بوعزيز وأسيره محمد أخ علي وهما أبناء حسين بن علي باي تونس (1705 - 1740م)، وأخبر بوعزيز من علي أن يطلب أبوه (حسين بن علي) من باي قسنطينة إخلاء سبيل ابنه إبراهيم المحتجز عنده في سجن القصبية (8)، وبالتالي فإن أم علجية قد تدخلت بعد أن أسر ابنها إبراهيم (أخ علجية)، آملة أن تؤثر وفادتها على حسين بن علي وابنه وأن يتدخل لصالح ابنها.

ولم يكن إرسال الشيخ بوعزيز لزوجته كمبعوث إلى بايات تونس كحالة فريدة وشاذة، بل استمر شيوخ الحنانشة على هذا المنوال، فقد جاء في دفاتر الإحسانات بالأرشييف الوطني التونسي أن إبراهيم بن بوعزيز شيخ الحنانشة (1755- 1772م) قد أرسل الحاجة فاطمة إلى باي تونس كمبعوث من عنده سنة 1172هـ/ 1758م، وبعث معها "حراير وخدام... وزوج أنفارس سياس الشيخ إبراهيم قدموا معها" (9)، وقد خصها باي تونس بامتيازات كبيرة وهامة، ومن المرجح أن تكون هذه المرأة المسماة الحاجة فاطمة هي والدة الشيخ إبراهيم.

ب. ظهورها على الساحة سنة 1724م.

لقد روى الرحالة الفرنسي "جان أندري بايصونال" الذي زار الجزائر وتونس سنة 1724م قصة علجية التي وصفها بـ "جان دارك"، وقد استطاعت أن تحقق ما عجز عنه أبوها الذي انهزم أمام محلة باي تونس وباي قسنطينة.

فقد قادت معركة "فج مراو"، ولبست أبي ثيابها وركبت حصانها وجمعت النسوة على أحصنتهن وخاطبتن: "مادام الرجال ليست لهم شجاعة الوقوف في وجه الأتراك الذين سيأتون قريبا لانتهاك حرمانتنا تحت أنظارهم، فلنذهب نحن بأنفسنا لنبيع أرواحنا وشرفنا غالبا أفضل من أن نبقي إلى

جانب هؤلاء الجبناء"، عندها تحرك الرجال وساروا إلى الأتراك وهزموهم، وأعادوا جزءا من الغنيمة وألقوا القبض على خليفة الباي(10).

إن هذه الواقعة تؤكد إصرار أفراد أسرة الأحرار رجالا ونساء على دفع كل خطر قد يهددهم وينزع عنهم شرفا توارثوه جعل منهم دائما على رأس مشيخة الحنانشة (11). وبالتالي فقد تميزت الفتاة علجية بصفات القائد المحارب الذي يقود أفراد القبيلة للحرب، خصوصا وأن صفات الفروسية في ذلك الوقت قد مازالت قائمة عند القبيلة وشيوخها الذين كانت هذه الخاصية إحدى الشروط المطلوبة لاعتلاء الزعامة.

ج. الشعر المحلي لتخليد البطلة علجية.

نشر شارل فيرو في تأريخه لقبيلة الحنانشة الشعر القبلي المخلد لبطولات الفتاة علجية وانتصارها على محالة الباي بقيادة خليفته، وقد جاءت هذه القصيدة في أربع صفحات تقريبا، وترجمتها إلى اللغة الفرنسية وحملت 34 بيت شعري، غير أننا نورد ما يخص الفتاة علجية في هذا الشعر(12) :

أهل العلوم يقرأوا من الحمد للبق	طاحوا اليوم سادات في الحروب أبدان
بنت بوعزيز سيدة الرجالة	ينده والى أشياخ القومان
تسبق الغزال تشطفه تزيد في لغواط	راكبا على زرقا تنطمي فرخ الجان

ومن بين المؤرخين الجزائريين الذين أوردوا قصة علجية ضمن التاريخ البطولي للشعب الجزائري وللمرأة الجزائرية ضد العدوان الأجنبي، المؤرخ عبد الرحمان الجيلالي حيث يقول: "ومما يذكرها بغاية الإجلال والإكبار مشاركة المرأة الجزائرية في الكفاح والذب عن الوطن ضد الظلم والعدوان، ما روى لنا التاريخ عن الست علجية بن بوعزيز بن ناصر شيخ قبيلة الحنانشة بسوق أهراس شرقي الجزائر، فإنها لما رأت انهزام قومها أمام الأتراك المتجمعين من جيوش باي قسنطينة حسين بوكمية وحليفه باي تونس في سنة 1136هـ/1724م"(13).

ويضيف المؤرخ معلومات هامة عن موقفها اتجاه البايات إذ يقول: "اهتزت لهذا الحادث المريع فامتطت صهوة جوادها وتقدمت بنفسها لحشد الجيوش ضد الخصم المتسلط وصرخت في قومها بالنفير العام لحماية الشرف والدفاع عن العفاف"(14)، وبالتالي فالجيلالي أول مؤرخ أورد قصة هذه الفتاة، وأورد سيرتها في طابع وطني، وتمجيذا لشجاعة النساء الجزائريات على مر العصور.

ولإعطاء صفات عامة عن نساء القبائل يمكن الاستشهاد بما ذهب يصف محمد الساسي العوامر حيث يقول: "... إن نساء البادية أكثر من الرجال عددا والبن جانبا وأرق طبعا ولسن مع ذلك دون الرجال نخوة وشهامة وعزة وعفافا وتدينا يطقن التعب ويتحملن المشاق ويتجشمن الصعاب ويشاطرن

الرجال في كل أنواع الأعمال فيقمن بإدارة بيوتهم ويساعدن الرجال حتى في غزواتهم وهن أشد تعلقا بالبدواة..."(15).

ونفس الشيء ذهب إليه المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله الذي أعطى وصفا مع أوصاف علجية عند تناوله لخصائص للمرأة الريفية (16)، فمن خلال هذا الوصف يمكن أن نقول أن صفات المحاربة والقائدة قد توفرت في شخصية علجية.

د. موقف بوعزيز من انتصار ابنته علجية.

كان الشيخ بوعزيز بن نصر في حالة فرار سنة 1724م خوفا من محلة باي قسنطينة حسين بوكمية (1713-1736م)، وباي تونس حسين بن علي (1705-1736م)، ومن المرجح أن بوعزيز قد ساند ابنته عن طريق تشجيعها معنويا في معركتها ضد الأتراك بقيادة خليفة الباي، وجاء في الشعر المحلي ما يلي(17):

سيدي بوعزيز صد عكام البارود
يوم الطراد مكفوخ هد ينكالي
راكب على نحيفة وسرجها يزيان
شمعة ضوات في فج نار شعالة

وبالعودة إلى الحياة الشخصية لعلجية فلم تذكر المصادر التاريخية أنها تزوجت من أي باي من بايات تونس أو قسنطينة، أو شيوخ القبائل الأخرى، باستثناء زواج ميرة العكري ابنة أو أرملة أخيها طراد من يونس بن علي باشا تونس (1735-1756م) في ثلاثينيات القرن 12هـ/18م(18)، كما لم تذكر الباحثة ليلي باييس أسماء نساء الحنانشة المتزوجات من البايات والشيوخ معطية العدد الإجمالي لمصاهرات شيوخ الحنانشة مع البايات أو مع القبائل الأخرى.

وقد بلغ عدد هذه المصاهرات 14 مصاهرة(19)، وأشارت الأستاذة جميلة معاشي إلى أنه كانت هناك بعض المصاهرات بين شيوخ الحنانشة والإنكشارية، ومن بين بناتهم التي تزوجت بانكشاري ابنة إبراهيم بن بوعزيز(20). كوَّنت من خلالها تحالفا وتضامنا مع شيوخها ضد الأخطار الخارجية، وتدعيما للنفوذ المحلي وكسبا لموارد مالية جديدة.

وربما لم تذكر المصادر حدث زواج علجية بسبب انعدام فارس قوي في القبيلة أو في القبائل الأخرى(21)، كما لم تذكر في الدفاتر الإحسانات خلال عهد أخيها الشيخ إبراهيم (1755-1772م).

وتظهر إحدى النساء من قبيلة النمامشة التي أثرت على مشيخة قبيلة الحنانشة وسياستها الداخلية والخارجية، فأثناء إحدى الصراعات التي عرفها شيوخ هذه القبيلة فيما بينهم، بعد أن استطاع صالح باي قسنطينة (1772-1792م) التفريق بين شيوخها، مستخدما سياسة "فرق تسد"، من خلال

عمله على شنّ الحرب سنة 1772م بين إبراهيم شيخ الحنانشة، وابنه بوحفص الذي كان آنذاك شيخا لقبيلة النمامشة(22).

فقد نجح الباي في مسعاه حيث دارت الحرب بينهما في هضاب منطقة بكارية بالقرب من تبسة، وفي إحدى الأيام وبعد توقف الفرسان ليلا بهدف أخذ استراحة ومواصلة الحرب في اليوم الموالي، ظهرت إحدى الأغاني الشعبية في معسكر قبيلة الحنانشة، ومما جاء فيها(23):

بركانا يا بوحفص بركانا
واد شبرو حدانا
بركانا بركانا هذا الفتن قضانا

وتحدثت القصيدة عن فتاة زوجة الشيخ بوحفص ابن شيخ الحنانشة، تسمى فطيمة وهي فتاة جميلة وشابة، وتنحدر من عائلة تابعة للنمامشة، كانت قد بقيت في زمالة الشيخ إبراهيم عند قبيلة الحنانشة، وحسب ما يظهر في الشعر المحلي فقد اتهمت بالزنا مع الشيخ إبراهيم أب زوجها، بهدف التفريق بين الأب وابنه.

وفي اليوم الموالي للمعركة وبدلا من القتال وسعيا لوقف الحرب، أمر بوحفص بعض أتباعه بالتوجه إلى زمالة الحنانشة واسترجاع زوجته، ثم جمع فرسانه وأعلن انفصاله عن أبيه، وقد رجع إبراهيم إلى موطنه بالحنانشة، وعاد بوحفص رفقة النمامشة إلى موطنهم عبر تامزة في الجنوب(24).

ويمكن القول أنّ علجية من إحدى النساء اللواتي اشتهرن بالشجاعة على غرار أم هاني من قبيلة الذواودة الهلالية(25)، والدايخة من عائلة ابن قانة وهي خالة الحاج احمد آخربايات قسنطينية (1826-1837م)(26)، وزوجة الباي عبد الله باي قسنطينية (1804-1806م)(27)، والتي كانت مشهورة بجمالها وحيوتها حسب ما جاء في مذكرات أحمد الشريف الزهار.

وقام أحمد باشا الجزائر (1805-1808م) بتعذيبها حتى الموت، وذلك لتفصح عن أموال زوجها عبد الله باي(28)، وقد أثار إعجاب المؤرخين الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر ومنهم فايسات(29).

2. إحسانات بايات تونس لنساء قبيلة الحنانشة.

نالت نساء شيوخ الحنانشة مكانة هامة لدى بلاط البايات التونسيين خلال النصف الثاني من القرن 12هـ/18م، كما حملت ألقاب عديدة على غرار لقب "الحاجة" والذي حملته "الحاجة بنت فرحات"، وفي بعض الأحيان لقبت بـ "الجيدة" (30)، وهي تدل على الاحترام والتقدير، كما اختلفت قيمة الإحسانات التي نالتها نساء شيوخ الحنانشة مقارنة بما أخذته نساء أخريات تنحدرن من القبيلة.

وبالرجوع إلى دفاتر الإحسانات نجد أن الحاجة فاطمة تعتبر من بين النساء اللواتي خصّهن بايات تونس بإحسانات وامتيازات كبرى، بصفتها مبعوثا رسميا من عند إبراهيم بن بوعزيز شيخ الحنانشة سنة 1172هـ/1758م، والجدول التالي يبين امتيازاتها التي تحصلت عليها من هذه الوفادة(31).

جدول رقم(2)
إحسانات الحاجة فاطمة

السنة	نوع الإحسان	قيمة الإحسان بالريال
1172هـ/1758م	نقود	500
"	إحسان للحراير والخدام الذين قدموا معها	320
"	إحسان لزوج أنفار سياس قدموا معها	20
"	إحسان بحق مقياس ذهب بالحجار ميزان 34 مثقال	272
"	حق زوجين حدايد صغار لها ميزانهم اوقية وثمان وذهب	46,03
"	حق زوج سفاسر حرير بالفضة كبار لها على يد القايد	60
"	حق ثلاث سفاسر حيري بالفضة على يد المذكور (القايد)	54
"	حق زوجين سياط بالفضة على يد المذكور (القايد)	16
"	حق ثلاثة سيايط من غير فضة	9
	المجموع	1297,03

وتعتبر النسبة التي نالتها الحاجة فاطمة كإحسانات من بايات تونس هامة ومميزة لأنها احتوت على مبالغ مالية وذهب وفضة وغيرها، غير أن هذا لا يسمح لها بأن تكون أكبر امرأة نالت قدرا كبيرا من هذه المكافآت، والجدول التالي يبين قيمة الإحسانات التي نالتها نساء الحنانشة من طرف بايات تونس.

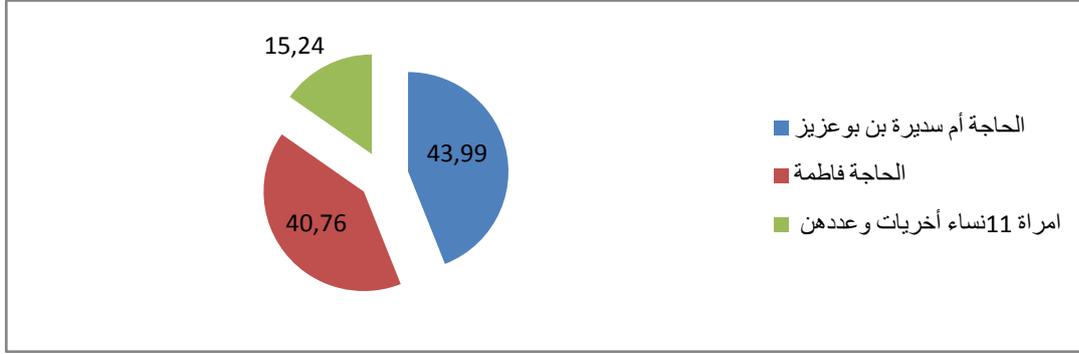
جدول رقم (2)
إحسانات بايات تونس لنساء الحنانشة(32)

اسم المرأة	قيمة الإحسان بالريال	السنة	نوع الإحسان
- الحاجة فاطمة	1297,03	1170هـ/1756م	نقود+ ذهب + فضة + حديد وسفاسر وسياط
- زوج نسوة مع المذكورين عبدة والحاجة أم النور	70	"	نقود
- رقية الحناشبة	20	"	"
- امرأة حناشبة	10	"	"
- الحاجة بنت فرحات الجيدة	10	1171هـ/1757م	"
	20	1174هـ/1760م	"
- تركية بنت فرحات	150	1173هـ/1759	"
- الحاجة أم سديرة بن بوعزيز	1000	1175هـ/1761م	للمنصرين احمد بن هنا الجيد مع الحاجة أم سديرة للسايس مع الحاجة أم سديرة ل 15 نفردواير معها لكل منهم 15 ريال
	50	"	
	25 -	"	
	325 -	"	
نساء أخريات	100+30+65+10	1175هـ/1761م	"
المجموع			3182,03 ريال

يظهر من خلال هذا الجدول أن نساء فرع نصر الحنانشة قد حظوا بمكانة هامة من طرف بايات تونس، فقد تلقوا إحسانات مالية متمثلة في نقود، وذهب وفضة نالها الحاجة فاطمة التي رجح الباحث توفيق بن زردة أن تكون من أهل الشيخ إبراهيم بن بوعزيز (33)، غير أننا نرجح أن تكون أمه، والمنحى البياني يوضح اختلاف نسبة الإحسانات التي تلقتها نساء فرع نصر خلال الفترة 1170-1190هـ/1756-1779م.

شكل رقم (1)

دائرة نسبية تبين مدى استفادة نساء فرع نصر من الإحسانات
فيما بين 1170-1190هـ/ 1756-1779م.



من خلال هذا الدائرة النسبية نلاحظ أن الحاجة أم سديرة بن بوعزيز قد نالت رفقة خدامها أكبر نسبة من قيمة الإحسانات حيث بلغت نسبة 43,99% من النسبة الإجمالية، ويعود ارتفاع هذه القيمة بسبب أن نوعية الإحسانات كانت مميزة لأم الشيخ سديرة المساند لأبناء حسين بن علي من جهة (محمد باي 1756-1759م، وعلي باي 1759-1782م)، ومن جهة أخرى للعدد الكبير من الخدمة الذين كان برفقتها من أجل خدمتها.

أما المرتبة الثانية فترجع إلى الحاجة فاطمة التي رجحنا أن تكون أمّ الشيخ إبراهيم وزوجة أبيه بوعزيز، ونالت نسبة 40,76% من القيمة الإجمالية، ويعود ارتفاع هذه القيمة بسبب نيلها للذهب والفضة وسفاسر وسياط، ولم تتلق أي امرأة من فرع نصر أي نوع من هذه المصوغات.

وترجع تلك الأهمية إلى كونها مبعوثة من عند ابنها الشيخ إبراهيم آنذاك، ومعرفتها الشخصية للبايات زمن الحرب الأهلية بين حسين بن علي وابن أخيه علي باشا فيما بين (1728-1740م)، والدور الكبير الذي لعبته قبيلة الحنانشة وشيوخها في تلك الفترة.

وكان حينئذ أبناء حسين بن علي باي تونس صغار في السن، وعلى معرفة بأفراد أسرة الشيخ بوعزيز، خصوصا أثناء قيام الزوجة بمراسلات زوجها بوعزيز، أو أثناء إرسال حسين بن علي لأبنائه لدا فرعي الحنانشة من أجل كسب الدعم، أمّا النساء الأخريات فقد نلن نسبة 15,24% من النسبة الإجمالية وعددهن 11 امرأة، منهن إحدى النساء اللواتي تزوجها الشيخ إبراهيم، غير أنها تبقى نسبة هامة في غياب نساء فرع منصر عن هذه الامتيازات، كما أننا نجهل سبب غياب اسم علجية.

3. نساء من بني جلاب بتقرت: لالة عيشوش.

تعتبر تقرت قاعدة وادي ريغ وعاصمة أمراؤها بني جلاب (34)، الذين تنتمي أصولهم إلى بني مرين(35)، وكان كل من يتولى حكم الأسرة يحمل لقب سلطان، كما كانت لها علاقات مصاهرة مع عائلة بن قانة، تلك العائلة التي وصل أفرادها إلى منصب شيخ العرب ابتداء من النصف الثاني من القرن الثامن عشر، بفضل بايات قسنطينة.

يعود الظهور الأول للنساء الجلابيات صاحبات النفوذ والثراء في مدينة تقرت إلى القرنين 8-9هـ/14-15م، حيث كانت هناك امرأة تسمى "البهجة"، قامت باستقبال المرابط سيدي بوجملين القادم من ضواحي المسيلة إلى تقرت، فعملت على توسيع نفوذ هذه المدينة بمعية هذا المرابط، ومن ثم صارت هذه المدينة تسمى "تقرت البهجة"(36)، وقد ساهمت في تأسيس الحكم الجلابي بالمنطقة.

وتعتبر "لالة عيشوش" إحدى النساء الجلابيات اللواتي ظهرن على الساحة السياسية خلال النصف الأول من القرن 13هـ/19م، فقد خصصت التقارير الفرنسية صفحة واحدة حول هذه المرأة(37)، وصفها شارل فيرو بقوله: "تنحدر من عائلة ابن قانة، وكانت جميلة جدا وفارسة ومغوار لا يفارقها مسدسها وتدخن التكروري ... أخذت لقب خليفة وقامت بإدارة الأعمال بمهارة فائقة، وهي امرأة تتمتع بطاقة وحيوية كبيرة، وكانت تركب حصان، وترتدي حزاما وتحمل مسدسات، وتتميز بوزنها الضخم"(38).

ويظهر من خلال وصف فيرو أنها كانت امرأة قوية، تتمتع بنفوذ وهيبة في تقرت والمناطق الخاضعة لها في الصحراء، واكتسبت تلك المكانة من عائلتها الثرية صاحبة النفوذ، والمدعمة من بايات قسنطينة، ومدعمة أيضا من عائلة زوجها بنو جلاب وما تمتعوا به من احترام فرضه سلطانهم وحكمهم في تلك النواحي.

وعن الظرفية التي احتلت فيها الزعامة فترجع إلى سنة 1833م حين توفي سلطان بني جلاب الشيخ علي (1831-1833م)، وبموته تولى مقاليد الحكم بعده ابن أخيه الشيخ عبد الرحمان الملقب بـ "بوليفية"، وسمي بوليفة لأن أمه كانت خائفة من قتله مثلما قتل أبناؤها الآخرين بناء على نصيحة من أحد المرابطين.

وبسبب صغر سنه حيث يبلغ 18 سنة فقط، تولت عيشوش أرملة الشيخ عمر الحكم باسم ابنها، وامتازت سياستها بالصرامة والشدّة، وعقدت حلفا مع فرحات بن سعيد الذي عزل من منصب شيخ العرب عند وصول أحمد باي للحكم سنة 1826م(39)، وقد واصلت مفاوضاتها مع الفرنسيين التي ابتدأها سلاطين بني جلاب منذ عهد الشيخ علي، أخذت لنفسها لقب "خليفة"، بغية تسهيل عمل القوات الفرنسية في بايلك الشرق الجزائري (40). وبالتالي فاللة عيشوش تتميز بذكاء ومهارة في تسيير الحكم خصوصا وأنها تنحدر من عائلة ابن قانة التي برزت على الساحة السياسية ببائلك الشرق منذ النصف الثاني من القرن 12هـ/18م، مستغلة عقد تحالفات أسرتها ومصاهراتها مع البايات وشيوخ القبائل الآخرين، ومستغلة نفوذها المادي أيضا.

ويرجع سبب الخبرة أيضا إلى أنها كانت زوجة للشيخ عمر بن جلاب، فقد كانت إذن قرب صناع القرار في تقرت، فارضة نفسها بعد تحالفها مع الشيخ فرحات بن سعيد أحد أقوى شيوخ العرب قبل وبعد الاحتلال الفرنسي لمدينة قسنطينة سنة 1837م.

ومن جهة أخرى كان على شيخ القبيلة أن يتحمل أعباء ومشاكل قبيلته والقبائل الخاضعة له، وأن يحرص على وحدتها، ويسعى نحو تحقيق الرخاء الاقتصادي بينهم، وتوجيههم نحو ما يعود عليهم بالخير والفائدة، كما كان عليه أن يسهر على أمن القبيلة أو المدينة والدفاع عنها، وقيادتها في الحروب.

غير أن ما يؤخذ على هذه المرأة هو توطيد علاقاتها بالفرنسيين، مكملة مشروع شيوخ بني جلاب في رغبتهم توطيد الحكم الفرنسي ببايلك الشرق الجزائري. ومن المرجح أن مخزن ابنها السلطان عبد الرحمان قد ساعدها في إدارة مدينة تقرت والقبائل الخاضعة لها، فقد كان للسلطان فرقة موسيقية، وجهاز إداري يتشكل من:

- وزيره بن يحي الذي يستخلفه في القيادة أثناء غيابه ويباشر كل سلطاته.
- المهدي المشرف على الخزينة، ومحمد بلعيد رئيس الخدم (من العبيد المحررين).
- سعد وهو من العبيد المحررين ويشغل منصب خزناني الحبوب(41).

وقد سكتت المصادر التاريخية والتقارير الفرنسية عن أي أعمال أخرى قامت بها لالة عيشوش، سواء في تقرت أو خارجها، وربما يعود هذا التكتّم عن حياتها الشخصية وعن علاقاتها مع مختلف الأطراف في الصحراء، إلى قصر مدة حكمها، والظروف التي طرأت على البايك، وخاصة احتلال مدينة عنابة من طرف الفرنسيين سنة 1831م، وقسنطينة في 13 أكتوبر 1837م، واستعدادهم للتوغل في الإقليم.

كل هذه الأحداث يرجح أنها ساهمت في إحجام المصادر عن سرد لحياة هذه السيدة، وحتى الضابط الفرنسي دوماس اكتفى بقول أنها سيدة جميلة، وصلت إلى الحكم بسبب صغر سن ابنها(42).

كما تقلدت بعض النساء الجلابيات الحكم في الصحراء، فبعد الاحتلال الفرنسي لتقرت سنة 1854م، حافظت أسرة بني جلاب في تماسين، على نفس المناصب التي كانت بيدها قبل الاحتلال الفرنسي لوادي رينغ، فالشيخ علي ورث الحكم في تماسين عن أبيه الشيخ عبد الله، ولما كان علي صغيرا فقد تولت أمه شويخة الحكم باسمه إلى أن كبر فأصبح حاكما على تماسين (43)، فأمرأ بلدة تماسين تابعين لبني جلاب، وأميرها هو ابن عم أمراء بني جلاب(44).

كما تحدثت بعض المصادر التاريخية خلال القرن 13هـ/19م، عن إحدى النساء الجلابيات كامرأة ثرية وصاحبة أموال طائلة، فقد قدرت ممتلكات والدة الشيخ أحمد شيخ بني جلاب والتي صادرها إبراهيم بن الحاج بن قانة عن طريق أحد خدمته بصندوق صغير به 16 000 محبوب، 500 ليرة، 60 بندقية،

زوجان من أخراص الذهب الكبار، 15 عقدا من الجواهر، 16 قرطا متوسطا، خلخالان اثنان، 3 معاضيد فضة وغير ذلك.

دون احتساب بعض الأشياء التي سقطت لرسول والدة الشيخ احمد، والتي لم يرها عبد الجواد خادم إبراهيم بن الحاج أثناء مصادرة هذه الأملاك (45). وبالنظر إلى قيمة هذه الأملاك فإنها ضخمة وكبيرة نظرا لكونها والدة شيخ، وتتلقى الهدايا من أبنائها وسكان مملكتها، بالإضافة إلى ما تدره التجارة على العائلة بأسرها.

غير أنه من غير الممكن أن تكون نساء بني جلاب فقط من ظهرن على الساحة السياسية خلال القرنين 12-13 هـ/18م-19م، فقد ظهرت بعضهن كالأميرة أم هاني التي انتقلت من سليمان بن جلاب أمير تقرت الذي كان أحد أقارب عائلة النوادة، وعينت مكانه ابن عمه أحمد الأكل سنة 1723م (46)، بالإضافة إلى "كاميرة" أو "قاميرة" زوجة الذباح شيخ العرب في عهد صالح باي (1772-1792م) (47).

بالإضافة إلى والدة الحاج أحمد باي قسنطينة 1826-1837م والمسماة "الحاجة رقية" التي تنحدر من عائلة ابن قانة الثرية، وقد لعبت دورا كبيرا في وصول ابنها إلى سدة الحكم سنة 1826م بسبب ثروتها الكبيرة (48)، ومنحها شيوخ القبائل هدايا مالية بعد اعتلاء ابنها العرش، غير أنها قررت تسليمها لحسين باشا الجزائر (1818-1830م) الذي كانت على علاقة صداقة معه (49).

ويمكن القول أن نساء بني جلاب قد ظهرن كأميرات صاحبات نفوذ وجاه ومارسن السلطة في بعض الأحيان، وبسببهن عرفت العائلة الجلابية دوائر مصاهرات واسعة.

الخاتمة:

لعبت بعض نساء قبيلة الحنانشة وبني جلاب دورا أساسيا في الميدان الاجتماعي والسياسي، فكانت تتولى الحكم وتشارك في المعارك وتشجع نساء قبيلتها على الحرب، كما كانت تتولى المشيخة بعد وفاة أحد أفراد عائلتها، أو عوضا عن أبنائها الصغار في السن، و كثيرا ما كانت تقوم بدور الوسيط أو أدوات لتحقيق إرادة ذكورية أحيانا لخلق علاقات مصاهرة، فقد كان المرء يجد وسيلة ضغط على خصمه في شخص زوجته أو مرضعته.

وبالتالي قدمت المرأة داخل القبيلة أبهى صور لها معبرة عن اهتمامها بمشاكل قبيلتها، ومشاركة في إيجاد حلول لها، ومعرضة نفسها للخطر سواء من أعيان العرش والقبيلة الرافضين لحكم المرأة، فقد كان من الاستثناء الاعتراف لامرأة في قبيلة بنفوذ سياسي، أو من طرف جهات خارجية متمثلة في محلة الببايات وغيرهم.

الهوامش:

- (1)- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، وصف إفريقيا، ج 2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ط2، ص 62-63.
- (2)- Tomas Shaw, Voyage dans la régence d'Alger ou description Géographie, Physique, Philologique, etc. cet État, traduit de l'anglais par J, Mac Carthy, Paris, chez Marliv, Editeur, 1830. pp 378-380.
- (3)- محمد حسن، المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج 1، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، 1999م، ص 209-210.
- (4)- Charles Féraud, Les Harar seigneurs des Hanencha, études historique sur la province de Constantine, n 18, in Revue Africaine, année 1874, pp 214-217.
- (5)- محمد بن محمد بن عمر العدواني، تاريخ العدواني، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م، ط1، ص 203.
- (6)- Op.cit, pp 214-217.
- (7)- حكم الشيخ بوعزيز بن نصر شيخ فرع نصر الحنانشة فترة طويلة امتدت من سنة 1705 إلى غاية سنة 1739م تاريخ مقتله على يد علي باشا تونس (1736-1756م).
- (8)- حمودة بن محمد بن عبد العزيز، الكتاب الباشي، قسم السيرة، ج 1، تحقيق ماضور محمد، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970م، ص 280.
- (9)- الأرشيف الوطني التونسي، دفتر الإحسان رقم 2144، (الصدقات والهدايا) المقدمة للبعض من سكان سائر أماكن البلاد وبعض الزوايا والبلدان المجاورة: الجزائر والمغرب والصحراء، تاريخ 1170-1192هـ/1756-1779م، ص 211.
- (10)- Peyssonnel et Desfontaines, voyages dans les régences de Tunis et Alger, Paris 1838, op.cit, p 295.
- (11)- توفيق بن زردة، الكنفدراليات القبلية ودورها في العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني-الحنانشة أنموذجاً- مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، تخصص العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر العثمانية ودول المغرب الكبير، تحت إشراف: أ.د. علاوة عمارة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2013-2014م، ص 46.
- (12)- Charles Féraud, op.cit, pp 214-217.
- (13)- عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م، ص 221-222.
- (14)- المرجع نفسه، ص 221-222.
- (15)- إبراهيم محمد الساسي العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق بن إبراهيم العوامر الجيلالي، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، 2007م، ص 258.

- (16)- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م، ط1، ص 162.
- (17)- Charles Féraud, op.cit, p 217.
- (18)- Leila Babes, Mythe d'origine et structures tribales dans le constantinois sous domination turque Essai sur le fondement du pouvoir politique, Thèse pour le doctorat de 3 e cycle, spécialité études politique, Aix- en- provence, France 1984, pp 275- 277.
- (19)- Op.cit, pp 279-280.
- (20)- جميلة معاشي، الانكشارية والمجتمع ببابلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، تحت إشراف: أ.د. كمال فيلاي، جامعة منتوري قسنطينة، 2007-2008م، ص 119.
- (21)- حول مراسيم الزواج في القبيلة خلال القرن الثامن عشر، أنظر: Peyssonnel, op.cit, p 119.
- (22)- سيتولى الشيخ بوحفص إدارة فرع نصر من قبيلة الحنانشة سنة 1772م تاريخ مقتل أبيه إبراهيم، وسيبقى في الحكم حتى سنة 1795م.
- (23)- Charles Féraud, op.cit, pp 354-355.
- (24)- Op.cit, p 356.
- (25)- Charles Féraud, Les Ben -Djellab Sultan de Touggourt, Notes Historique sur la province de Constantine, n 23, in R. A, année 1879, p 352.
- (26)- رياض بولحبال، أخبار بلد قسنطينة وحكامها لمؤلف مجهول (دراسة وتحقيق)، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في الدراسات العليا، تحت إشراف أ.د: إسماعيل سامعي، جامعة منتوري قسنطينة، 2009-2010م، ص 69.
- (27)- المرجع نفسه، ص 68-71.
- (28)- أحمد الشريف الزهّار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهّار، نقيب أشرف الجزائر (1754-1830م)، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 87.
- (29)- Eugène Vayssettes, histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517-1837, présentation de Ouarda Siari-Tengour, éditions Médias-plus, Constantine, 2010, p 171.
- (30)- الأرشيف الوطني التونسي، دفتر الإحسان رقم 2144، ص 210-220.
- (31)- الدفتر نفسه، ص 211.
- (32)- الدفتر نفسه، ص 210-220.
- (33)- توفيق بن زردة، إحسانات بايات تونس لجماعات الحنانشة 1170هـ/ 1756م- 1192هـ/ 1779م من خلال الدفترين 2145، 2144 بالأرشيف الوطني التونسي، منشورات مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، المجلد 10، تاريخ 6 جانفي 2017م، ص 14.
- (34)- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، مصدر سابق، ج2، ص 136.

(35)- عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية 1661-1663م، ج 1، حققها وقدم لها الفاضلي سعيد، القرشي سليمان، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2006م، ط1، ص 120-122.

(36)- Charles Féraud, Les Ben -Djellab..., n 23, in R. A, année 1879, op.cit, pp 164-165.

(37)- Archive Outre- Mer . Ex- en- province. 1H 9. Affaires de Touggourt – Commandement du Cheikhs Ben- Djellab.

(38)- Charles Féraud, Les Ben -Djellab, n 24, in R. A, année 1880, op.cit, pp 305 -304.

(39)- Op.cit, p 306.

(40)- A. O. M. 1H 9. Affaires de Touggourt – Commandement du Cheikhs Ben- Djellab.

(41)- Ibid.

(42)- Le Lieutenant- Colonel Dumas, Le Sahara Algérien études géographiques, statistiques et historique sur la région au Sud des établissements Français en Algérie, Dubos Frères, Alger, 1845, p 129.

(43)- معاذ عمراني، أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ميلاديين، دراسة سياسية واجتماعية، جامعة قسنطينة، 2002-2003م، ص 85.

(44)- عبد الله بن محمد العياشي، مصدر سابق، ج1، ص 119.

(45)- إبراهيم محمد الساسي العوامر، مصدر سابق، ص 299-300

(46)- Charles Féraud, Le Sahara de Constantine notes et souvenirs, A Jordan, Alger, 1900, pp 207-212.

(47)- Charles Féraud, Les Ben -Djellab, n 24, année 1880, op.cit, p 291.

(48)- علي خوجة أفندي بن حمدان خوجة، وصف رحلة من الجزائر إلى قسنطينة عبر الجبال سنة 1832م، تعريب وتقديم احميدة عميراوي، مراجعة إبراهيم بحاز، مطبوعات جامعة قسنطينة، الجزائر، 1999م، ص 26.

(49)- المكتبة الوطنية الجزائرية، مجموعة 3205، الملف رقم 03، وثيقة مفقودة رقم 13.

49. الأرشيف الوطني التونسي، دفتر الإحسان رقم 2144، تاريخ 1170-1192هـ/ 1756-1779م، ص 211.